مقدمة

في منتصف القرن ١٩م كانت الدولة العثمانية على مشارف الشيخوخة، وكان وضعها قد بدا واضحاً للعيان، إذ لم تستطع وقف الزحف الاستعماري الأوروبي على أجنحة العالم العربي، وبدأ الاستعمار بتسويق حضارته إلى العالم الإسلامي وفقاً لمخططٍ تبشيري أراد أن يكون منفذوه من أبناء العالم العربي والإسلامي .

وتأثر بهذا الاتجاه الأوروبي حاكم مصر محمد علي باشا(١٨٠٥-١٨٤٩م) الذي اتسمت جهوده بالخروج عن التكوين السياسي والفكري العثماني، والاتجاه نحو فرنسا. نلاحظ ذلك الإسراف في التوجه السياسي والفكري لأبنائه الذين حكموا مصر من بعده (١٨٤٩- ١٩٥٢م)، وكان نصيب فرنسا من البعثات المصرية إلى أوروبا في عهد محمد علي باشا وأبنائه النصيب الأكبر. كانت المقدمات لذلك التوجه هو قيام فرنسا بغزو مصر عام ١٧٩٨م، وأحدث الغزو هزةً عنيفةً في عقول أبناء مصر، كان (رفاعة رافع الطهطاوي) الذي ذهب إلى فرنسا كإمام لبعثةٍ مصرية تتلقى تعليمها عام (١٨٢٦- ١٨٣١م) وعبر عن رحلته التي فرضت عليه البقاء في فرنسا خمس سنوات في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، وقد ألقى بنفسه في خضم الدراسة بحماس ونجاح، فتعلم اللغة الفرنسية وقرأ كتباً كثيرة في التاريخ والفلسفة الإغريقية، والجغرافيا، والرياضيات، والمنطق، واطلع على سيرة نابليون وبعض الشعر الفرنسي، كما اطلع على مؤلفات فولتير، وكوندياك، وكذلك كتاب العقد الاجتاعي "لروسو" ومؤلفات "مونتسكيو" وترك عصر التنوير الفرنسي بصماته عليه، وأشار في كتابه إلى الإبداع الذي انبهر به ، فالفرنسيون، كما يقول " يتقنون صناعتهم ومن طبائعهم التطلع للأشياء الجديدة وحب التغيير والتبديل في كل الأمور.. ويوجه الطهطاوي نقداً

لاذعاً للحياة الاجتماعية الفرنسية فهو يقول إن الرجال عندهم عبيد النساء، ومن خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم وانعدام الغيرة في رجالهم، وكأنه أراد أن يصيغ مشروعاً حضارياً يقوم على مسوغ فكري حديث وجديد يأخذ من الحضارة الأوروبية ما هو مقبول، ما لم يتعارض مع نصوص الشريعة الإسلامية في سبيل نهضة عربية جديدة.

وعلى الرغم من أن محمد علي باشا قد انتهج سياسة تعليمية نهضوية تتوافق مع أغراض السياسة التوسعية، فقد قام بإنشاء مدارس ابتدائية ومتوسطة إلا أن هذه المدارس قد ألغي معظمها في أواخر عهده، وبمجيء عباس الأول ابن إبراهيم باشا أغلق المزيد منها وخاصة المدارس الفنية الثانوية، وجاء من بعده محمد سعيد باشا وأغلق المزيد من المدارس، مما أوجد فراغاً أدى إلى اندفاع المدارس التبشيرية الفرنسية والبريطانية والأمريكية المجانية، والحرة، والدولية، أضف إلى ذلك المدارس اليونانية والإيطالية، واليهودية، والأرمنية، اندفعت لملئه ابتداءً من أوائل عهد إسماعيل باشا، وكانت هذه المدارس تحتكم إلى أنظمة بلدانها والتدريس بلغتها، وأنشئت مدارس ابتدائية وثانوية بدعم من المسيحيين المصريين.. وأصبح التعليم شبيهاً بالتعليم الغربي.

لقد كان مبرر الدولة العثمانية في انحطاطها هو عدم الأخذ بالفكر العلمي والثقافي الأوروبي، وكانت الأزمة التي تعرضت لها الدولة العثمانية والتي سميت بالأزمة الشرقية في عام ١٨٧٥ – ١٨٧٨م، وتهديد جيوش أوروبا في التوغل في قلب الدولة العثمانية دون القدرة على صدها إلا بتهديد من دولة أخرى وكان من نتيجة ذلك احتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١م واحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢م وبدأت النخب المثقفة التركية ترى ضرورة الاحتكام لدستور فعال في البلاد على غرار ما هو قائم في أوروبا. وقام مدحت باشا رجل الدولة التركية بانقلاب استبدل به عبدالعزيز بابن أخيه

مراد الخامس، ثم اختل عقل السلطان مراد فاستبدل بابن أخ له هو عبد الحميد الثاني.. وفي خريف عام ١٨٧٦م أعلن عن دستور عثماني ينص على وزارة مسؤولة ومجلس للنواب. وكان للدستور أعداؤه وهم العلماء والمحافظون والسلطان نفسه على الرغم من أن السلطان كان قد سلم بالدستور بضغط من الدول الكبرى.

ونتيجة الصدام المسلح بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية، أصدر السلطان قراراً بحل البرلمان لأجل غير مسمى، وعلق الدستور ولم يلغه، وكان السلطان قد أعاد مدحت باشا من المنفى إلا أنه اتهم بقتل السلطان عبدالعزيز ـ الذي انتحر ـ وحكم عليه بالإعدام. ثم استبدل هذا الحكم بالإقامة الجبرية في الحجاز حيث قتل بلا ضجة بعد سنوات قليلة. في تلك الفترة كان الحديث عن جمال الدين الأفغاني (١٧٣٩- ١٨٩٧م) قد استفحل وخاصة حديثه عن الوحدة الإسلامية.. كان الأفغاني صفحة مفتوحة للملأ وظهر على مسرح الحياة العامة كشاب يطوف الهند ويستزيد فيها من علوم أوروبا الحديثة.

وينتقل إلى أفغانستان فيلعب دوراً سياسياً ينجح في بعض أدواره، ويقصد اسطنبول عن طريق مصر وتعرف في الفترة القصيرة التي قضاها فيها بالشاب الأزهري "محمد عبده" وفي اسطنبول وجد في علي باشا "الصدر الأعظم" رجل الإصلاح نصيراً قوياً. ثم عاد إلى مصر مرة أخرى أخرى في عام ١٨٧١م، وبقي بها ثماني سنوات، ولعب دوراً هاماً في الحياة المصرية مع فريق من الشباب كان من بينهم، محمد عبده، وسعد زغلول، وكان يلقى عليهم محاضرات، في رأيه أنها الإسلام الصحيح شارحاً لهم علم الكلام والفقه والتصوف والفلسفة.. كما نبه إلى خطر التدخل الأوروبي والحاجة إلى الوحدة الوطنية لمقاومته والسعي إلى وحدة أوسع للشعوب الإسلامية، والمطالبة بدستور يحد من سلطة الحاكم.

كذلك شجعهم على العمل من خلال إصدار الصحف لتكوين رأي عام مساند لآرائهم.. وعندما أتى للحكم توفيق باشا ابن إسماعيل نفي الأفغاني إلى الهند، وفي الهند قيدت حريته بأمر من السلطان عندما احتل البريطانيون مصر عام ١٨٨٢م.. وفي عام ١٨٨٤م ذهب إلى باريس والتحق به "محمد عبده" وعملا معاً في مشروع نهضوي يرعى شؤون الأمة الإسلامية، وأسسا مجلة "العروة الوثقى" ونشرا منها ثمانية عشر مجلداً.. تناولت معظم صفحاتها دور سياسة الدول الكبرى في العالم الإسلامي وخاصة سياسة بريطانيا في مصر والسودان.. وعالجا في مشروعهما النهضوي موضوع ضعف الإسلام الداخلي وكيفية معالجته.. ومنع توزيع هذه المجلة داخل المناطق العربية الواقعة تحت النفوذ البريطاني.

أما الشيخ محمد عبده (١٨٤٩- ١٩٠٥م) فقد اختلف مع أستاذه الأفغاني في طبيعة المنهج السياسي، فالأفغاني يدعو إلى إقامة جامعة إسلامية تضم ممثلين عن كل إقليم إسلامي، ويكونون مظلة يستظل تحتها العالم الإسلامي كله، وتكون لغة القرآن الكريم هي اللغة الرسمية، وحذر الأفغاني من تحدي السماح للانقسامات السياسية والمصالح المتعلقة بالحكام أن تحول دون الوحدة الإسلامية.. بينما "محمد عبده" رأى رأياً آخر تمثل بثورة تربوية... فالتربية هي قوام الحياة الاجتماعية والسياسية.

في عام ١٨٩٩م عين مفتياً لمصر وتمكن من خلال عمله هذا من إقامة مشروع نهضوي يقوم على إصلاح المحاكم الدينية، وإدارة الأوقاف، كما ساعدت فتاويه في الشؤون العامة على تفسير الشريعة الإسلامية تفسيراً يتفق مع حاجات العصر.. وفي العام نفسه عين عضواً في المجلس التشريعي الذي نشأ في عام ١٨٨٣م كهيئة صغيرة تقتصر مهمتها على المناقشة وإبداء الرأي... وتتكون من ثلاثين عضواً جزء منهم بالتعيين والأخرون بالانتخاب.

وساهم في تأسيس جمعية إسلامية خيرية هدفها إنشاء المدارس الخاصة.. وفي عام ١٨٩٥م أقنع الخديوي بتأسيس مجلس إداري للأزهر.. واتجه تفكير الإمام محمد عبده من قضية الانحطاط الداخلي إلى الحاجة إلى مشروع إسلامي مستنير.

وكان الخطر يتمثل بالتوجهات الفكرية الأوروبية بترسيخ العلمانية في المجتمع العربي خاصة. فقد كان يرى أن القوانين العلمانية المزروعة في غير أرضها لا تؤتي الثمر نفسه، لا بل قد تفسده، وكان في مصر نوعان من المدارس هي : (المدارس الدينية القديمة وعلى رأسها الأزهر، والمدارس العصرية الأوروبية التي أنشأتها الإرساليات والحكومة) وكان كلا النوعين غير صالحين، فالمدارس الدينية كان يسودها الجمود والتقليد، فهي تدرس القضايا الدينية لكنها لا تدرس العلوم الضرورية للعيش في العالم الحديث، أما المدارس والإرساليات فهي تقوم بتلقين الطلاب الثقافة الغربية، وبلغة أجنبية، أما المدارس التابعة للدولة فقد جمعت بين عيوب النوعين معاً. فقد كانت مجرد تقليد للمدارس الأجنبية، بينما لم تعن مدارس الحكومة بتعليم الدين إلا شكلياً، أضف إلى ذلك انصرافها عن تعليم الفضائل الاجتماعية والسياسية.. وكانت النتيجة وجود طبقتين مختلفتين من المثقفين في مصر لكل منها عقليتها الخاصة: "العقلية الإسلامية التقليدية المقاومة لكل تغيير، وعقلية الأجيال الطالعة القابلة لكل تغيير ولكل أفكار أوروبا الحديثة". لذلك اهتم محمد عبده في فلسفته التربوية أن يكون التعليم يقوم على مبادئ الدين الحنيف الحقيقية التي جاء بها نبينا محمد .

ويرى محمد عبده أن التقليد الأعمى ابتعد كثيراً عن الإسلام الحقيقي، وبالتالي فسدت العقيدة وساءت التربية و أدى ذلك إلى اختلال التوازن بين العقل والوحي وإهمال العلوم العقلية، وهكذا أفسد الحكام الإسلام، فانتشرت الفوضى الفكرية بين المسلمين برعاية الحكام الجهلاء، وبما أن

إصلاح الشريعة لا يكون فعالاً ما لم يكن هناك فقهاء مدربون على تفسيرها وتطبيقها، لذلك فالضرورة تقتضي إعادة النظر بالنظم التربوية الدينية.

وكان العالم الإسلامي بشكل عام يعاني من صراعات بينية كالصراع بين العثمانيين والصفويين والانتفاضات الثورية في مناطق الدولة العثمانية مثل اليمن عندما أعلن الأئمة الزيدية الجهاد ضد العثمانيين.. في هذه الأجواء ولد محمد بن علي الشوكاني في عام ١١٧٣هـ بمنطقة هجرة شوكان إحدى قبائل خولان.

عاش الشوكاني في الفترة من ١١٧٣- ١٢٥٠هـ، وامتاز عصره بأحداث هامة، عاصر الشوكاني أربعة أئمة هم : ا لمهدي عباس (١١٦١- ١١٨٩هـ) ١٧٤٨- ١٧٧٥م وتقلد الحكم من بعده المنصور (١٧٧٥- ١٨٠٩م) وابنه المتوكل أحمد (١٨٠٩- ١٨١٦م) ثم الإمام المهدي عبدالله (١٨١٦- ١٨٣٥م) وكان الصراع على أشده بين الأئمة.. وبينما كان المنهج الزيدي لا يعترف بوراثة العرش، إلا أنه من الملاحظ أنَّ كل الأئمة يمهدون لأبنائهم في الخلافة من بعدهم، وهم كغيرهم من الخلفاء العباسيين والأمويين في توريث الخلافة، وتم في عهد الشوكاني احتلال الإنجليز لجزيرتي ميون وبريم على مضيق باب المندب إثر احتلال نابليون بونابرت لمصر.

تصدر الإمام الشوكاني للإفتاء وهو في العشرين من عمره، وتولى القضاء وهو لم يتعد سن السادسة والثلاثين من عمره عام ١٢٠٩هـ ثم عين قاضي القضاة.. وقد وظف حقه في الرأي في مشروعه النهضوي الإصلاحي، ولكنه يختلف عن الإصلاحيين في مصر أو الشام أو المغرب العربي والذين احتكوا بالتعاليم الأوروبية، ولذلك كانت أفكارهم وليدة احتكاك حضاري، بينما الشوكاني كان يرى تقويم الفكر المذهبي الزيدي وفقاً لقناعته الفكرية الاجتهادية.. وحاول الشوكاني تشخيص أمراض المجتمع اليمني، فقد كان الجهل سائداً وكذا فساد الإدارة مع ضعفٍ في مركزية

الدولة وسلطانها. لذلك عمل على تأسيس منهج فقهي جديد يقوم على تحريم التقليد والدعوة إلى الاجتهاد وتحقيق علم أصول الفقه.. ذلك كان منهجه الفكري.

وبسيطرة الاستعمار الإنجليزي والفرنسي على معظم أقطار الوطن العربي.. وفي غيبة الوعي العربي بدأ التبشير بحركة علمانية تشريعية وسياسية من منطلق قومي.. وأخذ البعد القومي مفهوماً علمانياً.. وانتصر له كثير من الكتاب العرب.. وكان من نتائج الحرب العالمية الأولى تقاسم الوطن العربي بين إنجلترا وفرنسا وفقاً لمعاهدة تحالف ثنائي بين فرنسا وبريطانيا والتي أطلق عليها معاهدة "سايكس بيكو ١٩١٦م" والتي استهدفت تمزيق الوطن العربي إلى أقاليم.. وقد ساعد على ذلك "ثورة الشريف حسين" في مكة المكرمة ضد الدولة العثمانية ١٩١٦م بمباركة بريطانيا له. وفي عام ١٩١٧م حدثت الثورة البلشفية الشيوعية في روسيا.. وفي إطار الانتداب الأجنبي للأقاليم العربية، وضع الإنجليز والفرنسيون خطوط الحدود بين إقليم وآخر، لتبقى بؤر الخلاف دائمة بين الأجزاء المتجزئة.

في عام ١٩١٧م أعلن بلفور وزير خارجية بريطانيا منح فلسطين لليهود، والتزمت بريطانيا بوعدها، وسلمت فلسطين لليهود في عام ١٩٤٨م، وأنشأت لهم دولة.. وكان من مهام التوجه الحركي النهضوي الإسلامي أن يقاوم هذا المتغير الدولي الجديد.

وعندما جمع العرب رأيهم على صد العدوان الإسرائيلي عام ١٩٤٨م كانت في مقدمة ذلك الاتجاهات الإسلامية، ونشط الحراك الإسلامي داخل فلسطين.. إلا أن العرب والمسلمين لم يقدموا لهم غير العزاء.. ويناقش البحث.. المشاريع النهضوية الإسلامية من منظور الجماعات الإسلامية في الوطن العربي والإسلامي الآسيوي.. والتعرف على أزمة الفكر السياسي الإسلامي في تصور الجماعات الإسلامية، وكذلك علاقة الجماعات الإسلامية ببعضها

باختلاف الاتجاهات والاجتهادات الفقهية، ويخضع هذا البحث لمنهج تفسير المتغيرات الاجتماعية، منهج البناء الفلسفي للحراك التاريخي.. ويستعين الباحث بالتفسير الديني للحركات الإسلامية المعاصرة، والتفسير الاقتصادي كعامل من عوامل تنوير التجمعات المعارضة في الاتجاه الإسلامي.

ويتناول البحث تمهيداً يناقش الأوضاع السياسية في الوطن العربي والإسلامي من (١٧٩٨- ١٩٢٨م) ويتناول الفصل الأول التكوين الحركي للجماعات الإسلامية (١٩٢٨- ١٩٨١م). كما يتناول الفصل الثاني الغرب والعالم الإسلامي (١٩٧٩- ١٩٩٢م).. ويوضح الفصل الثالث إشكاليات التوجهات النخبوية للجماعات الإسلامية.. كما يتناول الفصل الرابع الملامح الجديدة لمشروع النهضة الإسلامية.

والله ولي التوفيق

obeikandl.com